شارلس لامب يروى عن شاكسبير

٢ــ قصة الشـــتاء

بقلم الأستاذ دريني خشبة

وهرول بها إلى كوخه واقى زوجته هاشًا ، ثم دفع بالطفلة الميمونة إلى صدرها اللطيف قائلاً : « أرضعيها ياموبسا ... أرضعى ابنة الملوك الصيد » ونظرت الراعية إلى بارديتا تارة ، وإلى طفلها أخرى ، وكأنما جزعت أن تشركه هذه الغريبة النازحة فى لبنه ، فقال الراعى وهو يوشك أن يجن : « أرضعيها ياموبسا فقد حملت إلينا كنزاً وجعلتنا سادة الرعاة ! » . فانبلجت إشراقة سعيدة فى أسارير المرأة ، وأبرزت ثديها الكبير الممتلئ باللبن فدست حلمته فى فم الطفلة ...

وخشى الراعى أن يبدو عليه الثراء المفاجئ إذا هو تصرّف في شيء من جواهر الطفلة بالبيع أو بغيره ، فرحل عن الإقليم كله ، ونزح إلى طرف سحيق ناء فى أقصى حدود بوهيميا . وهناك تلبث غير قليل ثم باع جزءاً من الكنز الملكى الكريم ، وابتاع بما حصل فى يديه من ألوف قطعاناً كثيرة . وما هى إلا سنون حتى درّت له أخلاف الثروة ، ونضر الله الأرض تحت رجليه بالرزق ، فعاش عيشة راضية مُخفْرجة ، وعَلَّم بارديتا ونشأها بين الضأن البُهْم ، فشبت فى هواء الطبيعة الحر الطليق وفى ميدانها السندسى الواسع ، لا صديق لها إلا كلبها الأمين الوفى ، ولاحديث إلا الأحلام الخافتة تتردد فى فم القمر الصامت ، ولا أطماع إلا أن تكبر البهم وتدر ألبانها

وشبت جميلة ناسمة كتمثال المرمر قد صقلته يد فنانة صناع ... رزينة كأنما أوحى إلى قلبها الصغير الخلى أنه مسرح لمأساة صامتة ومعبد لآلهة وسنانة تجثم فيه لحينها !

وكان لملك بوهيميا ابن مولع بالصيد ، يرتاد من أجله المسايل والوديان ومشارف الجبال . فبينا هو يصيد يوماً فى ذلك الصقع إذا عيناه تقعان فجأة على بارديتا ، وإذا هو يقف مسبوهاً زائغ البصر يعبد الفتاة البارعة الفينانة ، ويردّد عينيه في عالم جسمها الزاخر بأمواه الجمال ...

لله لحمها الوردى . وجبينها السّنى ، وفمها الخمرىّ القرمزى وشعرها المُسْعَدَوْدِن الذهبى ، وطرفها الساجى ! ولله هذا الحمل

كالطفل يُبْصِرُ فى الوذيلة وجهه ... فيخال ذاك الوجه من قرنائه
تحكى النجومُ الزُهْرُ فى دوراتها ... رقصَ المدِلِّ بعيشه وروائه
والنجم من خَلَلِ الغصون كأنه ... ثمرٌ تدَلَّى من علىِّ سمائه
والحي يحيا كالذى هو ناظر ... كالأفقِ يُرْسَمُ فى متون نهائه
والزهر يحلم بالفرادس طرفه ... حلم الغريب بأهله وفنائه
حسب الطيور تحاملت عن قلبه ... وبدت تبوح بشجوه ورجائه
والقلب مرآة الزمان فصيفه ... فى صيفه وشتاؤه كشتائه
والكون مرآة الفؤاد فقبحه ... وجماله فى نحســه ورخائه
والضوء خمر للربيـع فلا تعَفْ ... جُرَعاً تُنيلُ الخلد من صهبائه
هذى الطيور لسـانه وغناؤها ... مستأنف من شدوه وغنائه
والزهر فى حر الهواجر نائم ... سحرته باللحظات عين ذُكائِه
والأرض تحلم بالجِنَانِ فصيفها ... حُلُمٌ يزيح القلب عن ضَرَّائِه
بَسَطَ الجمالُ على الفضاء جناحه ... فالصيف من لألائه وروائه
فـكأنه مَلَكٌ يُحَلِّقُ فوقهـا ... فتصيب من آلائه وعطائه
يا ليت أن المرء فى أرجائهـا ... مُتَفَرِّقٌ فى أرضـه وسمائه
حتى يصير من الجمـال بمنزل ... فى مائه ونسـيمه وهوائه
وتظل تسمو النفس فى آفاقه ... كالطير حَلَّقَ فى أديم فضـائه

عبد الرحمن شكرى

الناعم القطيفي الذي سلبته لها الطبيعة من خوخ بوهيميا ! لقد ملأت برديتا قلب فلورزيل وعينيه ، وسرت كالحميا في دمه ، فنقلته من دنيا إلى دنيا ، ومن مُلك إلى مُلك ، وركبت له قلباً غير قلبه ، وإحساساً مرهفاً غير إحساسه ؛ وسرت في خياله طيفاً معبوداً جمل الحياة جميلة مثلها ، حبيبة لأنها فيها ..

وهكذا عمر قلب الفتى بحب الفتاة ، فبات لا يفكر إلا فيها ، ولا يتوجه بأحلامه إلا إليها ... وأخذ يكثر الصيد في هذه الجهة ويتردد على هيكل غرامه المقدس لينشق عبيره ، وينعم بأرج الحب في أكنافه ... ثم لم يطق أن يطل هذا حاله ، فتنكر في ثياب شعبية ، وصار يتردد على كوخ الراعي فيحدثه ويسمر إليه ، وآنس فيه لطفاً وظرفاً وتأدباً ، فمال إليه ، واطمأن فؤاده لصحبته ... وكان فلورزيل فتى مشرق الشباب حلو الفم ، يتحدث فتنجذب إليه الأسماع ، ويبسم فتسرح في وجهه العيون

ولقي الفتاة فنمت عيناه المدنفتان بكل ما في قلبه ، وجميع ما يتأجج بين أضلاعه ففتحت له قلبها الخلي ... وهرول هو من عينيها الصافيتين الساحرتين ، ومن فمها القرمزي المُتَمْتِم ، إلى أبعد أغواره ...

وذكر لها أن اسمه دوريكليز ... !

***

وطال غيابه من حضرة أبيه الملك ، وتمدد ، وأصبح لا يهمه أن يغشى المجالس الملكية ، فجمجمت نفس أبيه بأشياء فراح يدبر أن يعرف منها ما حرص ابنه أن يخفيه عليه

وأرسل عيونه في عقبيه ، فعرفوا ما بينه وبين برديتا

ودعا الملك إليه صديقه كاميللو ، كاميللو المخلص الذي أنقذه من السم في بيت ليونتس ملك صقلية ، فكشف له عما في نفسه وذهبا متنكرين في إثر فلورزيل إلى كوخ الراعي ... والد برديتا فيما زعم له الزاعمون

وكان عيد الصوف الذي يجزون فيه الأغنام ، وكان الكوخ وما حوله في حركة صاخبة ومرح ، وكان المدعوون جالسين إلى الموائد الحافلة بالآكال والأشربات والأشواء المعممة بالجبن ، وكان الولدان والعذارى والغانيات يرقصون على نغم الناي فوق العشب الأخضر ؛ وكان بائع متجول يجلس في ناحية وقد التف حوله فتيان وفتيات يشترون ويشترين ، هذا رباطاً وهذه قفازاً ... وكان فلورزيل قد انتحى وبرديتا ناحية ، وراحا يتناجيان ويتباثان ، غير معنيين بهذا الحفل الراقص ، اللاذ بالأذرع والسيقان ، المائس بالقدود والنهود

ودلف الملك نحو الجهة التي اعتزل ابنه الناس فيها ، ودلف وراءه كاميللو ، ثم جلسا عن كثب ، بحيث يسمعان نجواهما

— عجباً يا كاميللو ! إن هذا الجمال وهذا السمت كثيران على ابنة راع نشأت بين البهم ، وشبت في جنبات المروج !

— ولم يا مولاي ؟ أليس الرجل أغنى رعاة بوهيميا ؟ إنه ملك القطعان ، وابنته من أجل ذلك ملكة اللبن والقشدة !

— إن فلورزيل يجلس بين يديها كالحمل !

— وليس هذا عجيباً أيضاً ، لأنها خبيرة بتأديب الذئاب !

وتبسم الملك ثم ترك صاحبه وقصد إلى الراعي فسلم عليه ثم قال :

— عمرك الله أيها الأخ ! من هذا الدنف المتبول الذي يناجي فتاتك الهيفاء ؟

فقال الراعي : « ذاك الفتى ! إنهم يدعونه دوريكليز ، وكل منهما يهيم بصاحبه كما ترى ... ولست أدري أيهما أسعد بإلفه من الآخر ؛ بيد أنني لا أشك في أنه إذا اختارها لتشركه في حياته فإنه يفوز بشيء عظيم جداً ، لأن وراءها كنزاً لا يحلم مثله بمثله ! ! »

ويمم الملك شطر الحبيبين فقال يخاطب ابنه وهو يمضغ كلماته ويعطها ، حتى لا ينكشف أمره : « أنت أيها العاشق الصغير ، فيم اعتزالك هذا العيد بما فيه من لهو ومرح وقصف وعزف ! ويحك ! لقد جاء عليّ حين من الدهر أحببت فيه كما تحب أنت اليوم ... وكنت أسجل حبي بالهدايا والتذكارات ، فما لك لا تشتري لحبيبتك من البائع المتجول كما يشتري الولدان لعذاراهم ؟ »

وقال فلورزيل ، وهو لا يدري أنه يخاطب أباه ومولاه :

« تالله يا أبتاه الشيخ لو اطلعت على ما في جوانحنا لاستقللت الدنيا بأسرها هدية لحبيبتي برديتا . وإن هديتي لها هي هنا ... في هذا المكان الأمين ... في قلبي »

ثم التفت إلى الفتاة وقال : « أوه يا برديتا ! إصغي إلي يا حبيبتي ! لقد سأل هذا الرجل الشيخ أن أقدم لك هدية كما كان يفعل إذ هو فتى ذو صبابة ودر هوى ! فها أنذا أقدم لك فؤادي بين يديه وأجعله شاهدي ؛ وها أنذا أعلن أمام الملأ أنني أكون أسعد الناس لو رضيني أبوك زوجاً لك ، ويسعدني أن يبارك هذا الشيخ عقد حبنا وصحيفة ارتباطنا ! ... »

ولم يطق الملك على تصرف ابنه صبراً . فانتزع دِمَامه[1] ، وكشف عن حقيقته ، ثم صرخ بابنه قائلاً : « بل أشهد على صحيفة طلاقكما أيها الشقى ! ما شاء الله يا ولى العهد ! لم يبق إلا أن تنسى دمك الملكى فتلطخه بدم هذه الراعية ! تلك الفجرية التى استهوت فؤادك وسَبَت لُبك ! الويل لك يا فلوريزيل ! إنى أنذركما معاً ! حذار أن يرى أحدكما الآخر ، وإلا كان الموت جزاءكما تجرعانه يا شقيين ! أتسمع أيها الراعى ! ذُدِ ابنتك عن سيدك أو ادفع رقبتك ثمناً لعصيانك

ثم أمر كاميللو أن يتبعه مصطحباً فلوريزيل ، وامتطى هو جواده ، وذهب يعدو به ، وكأنه شيطان على فوهة بركان !!

وغلى الدم الملكى في عروق برديتا ، فوقفت تردد عينيها فى أثر الملك وتقول : « ويحك ! أيهذا الملك ! على هينتك ، فوالله ما أزعجتنى غضبتُك ، ووالله لقد هممت أن أقول لك كما قلت لى ، وإن الشمس التى تشع بأضوائها على قصرك هى هى التى تشع بلألائها على كوخنا هذا الهادىء الصغير ! ولكن ! واأسفاه ! لقد أيقظتنى لهجتك الجافة ذات الصرير من أحلامي السعيدة التى رفعتنى حيناً إلى مصاف الملوك ! فيا أحلامى ... وداعاً ... ووداعاً أيها الأمير ! وداعاً يا مولاى . ! أتركنى أرجوك !

أتركنى لخرافى ونعاجى الحبيبة أرعاها وأحتلبها ..! وأبكى معها فوق المروج الخضر والعشب الحلو !

وانهمرت عبراتها فجأة ، فوجم ولى العهد المعذب ، ووقف كاميللو ساهماً متأثراً ... ثم خطر له أن ينقذ الحبيبين ، وأن يصل حبلهما المقدس ، لأن قضيتهما من قضايا القلوب التى لا سلطان لأحد عليها ، والتى لا تقوى على فصمها حتى يد الموت التى هدّد بها الملك المغيظ المغْضَب

وكان كاميللو قد علم بما كان من حزن ملك صقلية وتوبته وحسن إعتذاره وجميل إنابته ، بعد موت هرميون ، وكان الشوق إلى الوطن والحنين إلى الأهل قد برّحا به ، ففكر لتَّوه أن يفر بالحبيبين من وجه ملك بوهيميا ، إلى رحاب ملك صقلية ، حيث تقى شفاعة ليونتس ، من غضب بوليكسينز ، وحيث تتيح[2] الفرصة للود القديم فيحيا ويتجدد ، وتتهيأ القلوب للمصافاة فتندى

وعرض عليهما مابدا له من الفرار فانشرحا له ووافقا عليه ؛ ثم كلم الراعى فى شأنه ونعمه وقطمانه فتركها فى عهدة صديق له وجمع ما خف حمله من ماله وما احتفظ به من جواهر برديتا وثيابها التى وجدها فيها والورقة التى كتب عليها اسمها وشىء من نسبها وحديث مأساتها ... ثم لاذ الجميع بالفرار

وكانت مجازفة مليئة بالشجن ، فى طريق محفوفة بالمخاطر

واستأذن كاميللو على صديقه ملك صقلية ، فتلقاه بعينين باكيتين محزونتين ، وضمه إلى صدره كأنما كان يعانق أشباح الذكريات الحبيبة ، ويضم طيف الماضى العزيز ...

— مرحباً كاميللو .. مرحباً بحبيبي المخلص ، ومشيرى الأمين .

— مولاى ! ...

ثم انحبس منطق الرجل فلم يزد على هذا ، وترك لدموعه أن تتكلم !!

ولما هدأ ، وسكنت نفساهما ، قدّم إليه كاميللو ولى عهد بوهيميا ، ابن صديقه الأعز ، وحبيبه الأوفى ، بوليكسينز ! فتبسم له الملك ، وتلقاه بالأهل وبالسهل ، ثم طبع على جبينه قبلة التكفير عما ظن بأبيه من سوء . وقدم فلوريزيل فتاته برديتا قائلاً : « خطيبتى الأميرة برديتا يا مولاى ! » وهش لها الملك وبش ، ولكن سرعان ما تبددت ابتساماته فى جو من الذكرى دَهَم فؤاده فجأة !

لقد نظر الملك إلى الفتاة الجميلة الرائعة فكأنما وقف فى ظهيرة غائمة قاتمة فوق قُلة جبل ، ينظر إلى أشعة الشمس تغمر سهلاً نائياً كله ورود ورياحين وأزهار !

لقد ذكر ماضياً سعيداً حافلاً بالهناءة عند ما رأى برديتا !

لقد رأى فى عينيها أحلامه المواضى الرائعات !

لقد أحس بقلبه يثب من صدره إلى حدقته ليرى إلى الأميرة القادمة ؟ !

وَىْ ! تُرى ! هل من الجنة آبت هرميون !

أليس هذا هو طيفها الحبيب يتمثل له فى هذه العذراء الفتان ؟

ولحظ الراعى ما بده الملك من برديتا فوجب قلبه ، وطفت ذكرياته القديمة فوق بحر لجى من عباب نفسه ، لكنه صمت مع ذلك ولم ينبس

« يتبع » دريني خشبة

(١) الدمام ما طلى به الوجه وغيره ونحن هنا نترجم بها كلمة المكياج التى تزيد على الدمام بالشارب المصطنع واللحية وشعر الحواجب والرأس . وحبذا لو وافقنا علماء اللغة فخصصوا الدمام (للمكياج) والطرية (للتواليت)

(٢) تاح يتوح ويتيح تهيأ